السياسة عند ميشيل فوكو

بقلم: ميشيل وولزر(*)

ترجمة(*): ممدوح عمران(**)

I

ليس اهتمامي هنا في المقام الأول بمواقف ميشيل فوكو السياسية والتصريحات التي أدلى بها والمقالات التي كتبها وباستجابته 'لأحداث' ـ أيار 1968 والتمردات في السجون في بداية السبعينات والثورة الإيرانية وهكذا؛ فبالرغم من إصراره على عدم امتلاكه موقفاً سياسياً وعدم رغبته في أن يوضع على رقعة شطرنج المواقف الموجودة (لا يلعب الشطرنج أو أيّة لعبة أخرى يمكن للبقيّة منا أن تعرف قواعدها)، إنه يستجيب بالفعل للأحداث السابقة الذكر أما تصريحاته ومقالاته فذات صفة متماسكة. فهي من النوع الذي تعلّمتُ أن أدعوه، في العالم السياسي الذي ترعرعت وتعلّمت أن أتكلم فيه 'باليسارية الطفولية'. أي أقلّ توافقاً أكثر منها سبقاً للجدال الأكثر راديكالية في الصراع السياسي. لكن يسارية فوكو الطفولية ليست اهتمامي الرئيس.

أريد عوضاً عن ذلك، أن أعالج نظريته السياسية ـ بالرغم من أنه أيضاً يصرّ على عدم امتلاكه نظرية سياسية. فهدفه، كما يقول 'ليس صياغة نظرية منظّمة وشاملة تضع كل شيء في مكانه، وإنما هو تحليل خصوصية آليات القوة «mechanisms of power» وبناء معرفة استراتيجية شيئاً فشيئاً'[1]. لكن المعرفة الاستراتيجية تتضمن

(*) اسم المؤلف وعنوان المقالة والمصدر باللغة الإنكليزية:
Michael Walzer, «The Politics of Michel Foucault», Foucault: A Critical Reader, edited by David Couzen Hoy, Oxford, Basil Balckwell, 1986.

(*) تمّت مراجعة النص وضبطه بعناية أمينة التحرير عصماء نعمة.
هذا البحث المتعلق **بفكرة ميشيل فوكو السياسية**، كان قُدِّم لأول مرة كمحاضرة في جامعة برنستون في شباط/ فبراير 1982. أُعيد طبعه من قبل ديسنت **Dissent**، المجلد 30، إصدار 1983، ص 481 ـ 490.

(**) أستاذ في قسم اللغة الإنكليزية ـ جامعة تشرين ـ اللاذقية ـ الجمهورية العربية السورية.

بحسب تفكيري نظرة منسجمة مع الواقع ووضوحاً للهدف، وسوف أركّز على هذين الأمرين.

أولاً، على وصف فوكو لعلاقات القوة المعاصرة وتاريخها أو نسبها «genealogy».

وثانياً، على موقفه نحو هذه العلاقات وعلى هدفه في الكتابة حولها.

أعرض عدداً من الفرضيات. أُعدّ فوكو كاتباً بالمعنى التقليدي للمصطلح، أي مسؤولاً عن الكتب التي يكتبها والمقالات التي يعطيها والمحاضرات المنشورة باسمه. أعتقد أنه يقدّم مناقشات (وبشكل فضفاض يقدمها حجة) وأن لديه هدفاً. هذا من أجل جعل فوكو موضوعاً أكاديمياً، وربما لفرض بنى معرفة عليه يريد هو أن يحطمها. إنه معادٍ للضبط «anti-disciplinanian» (كلمته هو) وفي حرب مع نظم الضبط العقلية السائدة intellectual disciplines. قد تكون هذه حرباً عادلة؛ وهي على كل حال، حرب مشوقة. ولا أريد أن أتشاجر معها طالما أن فوكو يتحدّى النظم واحداً واحداً، الطب والطب النفسي وعلم الجريمة والعلم السياسي وهكذا. لكن يتوجب أن تحصل كلٌ من هذه الحملات ضمن نظام عام للغة وضمن قواعد المعقولية (إن لم تكن ضمن الحقيقة).

إن كتب فوكو، كما يقول، تخيُّلات ليس إلاّ لكون علاقات القوة والمؤسسات التأديبية disciplinary establishments التي يمكن تشريعها ضمنها غير موجودة بعدُ[2]. في الوقت عينه، لديه العديد من القراء الذين يبدون وكأنهم يقيمون في مثل هذه المؤسسات لأنهم يعدون علوم النسب genealogies عنده دقيقة بل وحتى غير قابلة للجدال؛ ولديه طلاب وأتباع يتتبعون خطط البحث التي عرضها. فكتبه مليئة بتصريحات تدّعي المعقولية الآن وهنا here and now. إنه يكتب بجمل تقريرية، على الأقل في بعض الأحيان، بالرغم من أنه مولع بالجمل الشرطية والاستفهامية، إذ غالباً ما تمتلك حججه سمة التلميحات. وعلى أي حال يتم تعزيزها بحواشٍ مفصّلة وبتوثيق شارد جداً بالرغم من أنه مجد (كما يؤكد لنا). وهكذا أحسبه يقول شيئاً ما نحن مدعوون لتصديقه، وبعدئذٍ لعدم تصديقه، أي أن 'نعزل قوة الحقيقة عن أشكال السيطرة... التي تعمل ضمنها في الوقت الحاضر'[3]. أعدّه يعرض مناقشة صحيحة أو خاطئة أو صحيحة جزئياً أو خاطئة جزئياً.

تجاه هذه الحجة، سوف أتبنّى موقف 'الشارح'. نظراً لأن فوكو لا يعرضها أبداً بأي أسلوب شبه نظامي، فسوف أجمعها من كتبه ومقابلاته الأحدث زمناً (والأكثر سياسية) متجاهلاً المقاطع التي لا أفهم ومتجاهلاً كذلك تكراره ومراوغاته ورافضاً أن أحيا في مرتفعات زركشته. سوف أفعل ما أفعله على الدوام في أي كتاب أقرؤه: أحاول أن أحلّ ما يقوله الكاتب. هكذا يتم إخضاع العقول الكبيرة... عند قراءة إنسايكلوبيديا بورجز الصينية Borge's Chinese Encyclopedia سوف أجلس جاهداً من أجل تصميم

فهرس مناسب.

الافتراض الاخير، الذي يتوجب عليَّ إيضاحه، بما أن الشهرات الباريسية ليست العملة الصعبة في الولايات المتحدة اليوم: أفترض أن جهدي جدير بالاهتمام، ليس فقط لأن فوكو ذو تأثير، ولكن أيضاً لأن وصفه لسياستنا اليومية، بالرغم من أنه في الأغلب معروض بشكل مزعج وليس دقيقاً كليّةً أبداً أو محدداً كفاية فهو صحيح كفاية ليسبب الإزعاج - وأيضاً لأنه مخطىء على نحو هام. ويمكن أن ألخص الحجة التي سنخلص إليها بمقارنة فوكو بنقيضه العظيم في عالم النظرية السياسية، تومس هوبز Thomas Hobbes. ('يتوجب علينا'، يقول فوكو، 'أن نتحاشى نموذج الدولة الدكتاتورية Leviathan model في دراسة القوة'.)[4] ولا يمكن لهذه المقارنة أن تقام بخصوص نفاذ البصيرة أو وضوح الفكرة، لكن فقط بخصوص الآراء العامة لكلا الكاتبين. يعطينا هوبز وصفاً مخطئاً على نحو هام للسيادة السياسية؛ منتفخاً بلاغياً وخالياً من أية امتيازات أخلاقية إلاّ أنه يمسك بشيء من واقع الدولة الحديثة. بينما يعطينا فوكو وصفاً مخطئاً على نحو هام لنظام الضبط المحلي local discipline، منتفخاً بلاغياً وخالياً من الفوارق الأخلاقية، إلاّ أنه يمسك بشيء من واقع المجتمع المعاصر.

II

تبدأ حجة فوكو السياسية بالقضية التالية ذات الجزأين: الجزء الثاني على العموم غير معلن لكونه مقبولاً من اليسار الفكري الفرنسي: (1) الملك هو الحاكم الفعلي، الظاهر، الفعّال، العامل الضروري، والتجسيد المادي للقوة السياسية في الدولة الملكية؛ لكن (2) ليس الناس الحكام وليسوا التجسيدات للقوة في الدولة الديمقراطية؛ ولا هم ممثلوها. انتخابات، أحزاب، وجمعيات تشريعية غائبة كليّةً في 'خطاب القوة، discourse of power' عند فوكو والغياب بليغ. إنه يتطلب فقط شروحات أشد اختصاراً. 'لا تتركب القوة من «إرادات» (الفرد أو الجماعة)، وليست مشتقة من الاهتمام'.[5] لا توجد إرادة عامة ولا تحالف مجموعات اهتمام فعّال؛ السيادة تعمل فقط عندما يوجد مِلك مادي. في المجتمعات الغربية المعاصرة، تتشتت القوة، لكن ليس كما يأمل الديمقراطيون أن يشتتوها، ليس كما المواطنون الذين يناقشون ويصوتون، وهكذا يحددون سياسة الحكومة المركزية. لقد تمّ إبطال المواطنية والحكومة على حدٍّ سواء. وفوق ذلك النقطة الأساسية للنظرية السياسية الحديثة مذ جهّزت الدولة المطلقة الارض التي شيّدت عليها، قد كانت في تفسير هذين الأمرين.

لا يزال المنظرون يحاولون الإجابة على الأسئلة الهوبزية Hobbist، التي يصوغها فوكو على النحو التالي: 'ما هو الملِك؟ كيف يتم تنصيبه كملِك؟ ما صلة الطاعة التي تربط الأفراد بالملك؟'[6] وهكذا فإنهم يظهرون القيود النَسَبية genealogical لمشروعهم، الذي تمّ إيجاده في البداية لتفسير مجموعة علاقات القوة المنهارة الآن. وربما يكون هذا

سبباً آخر يوضح عدم رغبة فوكو في أن يدعو نفسه منظّراً سياسياً. فعندما اجتُثّ رأس الملك، ماتت نظرية الدولة أيضاً، وتمّ استبدالها بعلم الاجتماع، بعلم النفس، الجريمة، وهكذا......

الملك بلا رأس، العالم السياسي بلا مركز عملي. ينجح فوكو ببراعة في مداولة 'أزمة الشرعية' التي تتم مناقشتها بجرأة في الجهة الأخرى من الراين Rhine: لم تكن الدولة شرعية لزمن طويل. ممارسة القوة وقبولها أو تحمُّلها يحصل الآن في مكان آخر. كانت حجة هوبز Hobbes وورثته النظريين أن المرؤوسين خلقوا وشرعوا إخضاعهم بالتخلي عن (بعضٍ من) حقوقهم للدولة؛ من هنا أصبحت الدولة عادلة ومدافعة عن الحقوق. لا تزال هذه الدولة موجودة، تقريباً، لكنها فحسب 'تخفي' الـ 'إجراءات الفعلية للقوة'، 'الآليات للقسر الضبطي، 'disciplinary coersion'، التي تعمل خارج المتناول الفعّال للقانون. يوجد الآن إخضاع جديد يولّد ويشرّع المرؤوسين الجدد ـ ليس الحاملون للحقوق وإنما قواعد السلوك، أدوات وأيضاً إنتاجات للتنظيم المعنوي، الطبي، الجنسي، النفسي (مفضّلاً ذلك على القانوني). يتحول اهتمامنا، لأن الفعل يتحول، من الدولة الفردية إلى المجتمع التعددي.

درستُ مع بارينغتون مور Barrington More منذ سنوات خلت في حلقة بحث دراسات عليا مجموعة من علماء الاجتماع والسياسيين الأميركيين، الذين يُدعون بـ 'التعدُّدين ' pluralists، الذين جادلوا في أن القوة مشتتة جذرياً في المجتمع الأميركي. لا يوجد ملك، لا نخبة سياسية، لا طبقة حاكمة، لكن توجد تعددية جماعات وتعددية أفراد. يمتلك كل شخص قليلاً من القوة تقريباً؛ لم يمتلك أحد الكثير منها كي يتأكد من الحصول على كل ما يريد كل الوقت. لقد تعلّمت أن ذلك مبدأ محافظ. إذ بنكرانه وجود مركز قيادة فإنه حرم السياسة الراديكالية من موضوعها. بالرغم من ذلك، بالطبع، وجد مثل هذا المركز، إن لم يكن ظاهراً على الدوام أو خجولاً أو منظماً جداً: القانون والسياسة لهما شكل يتناسب مع مجموعة الاهتمامات؛ والاهتمامات تفرض الشكل، تطغى إن لم يُسيطر مطلقاً على صياغة القانون والسياسة.

يمكن بدقة قراءة فوكو كتعدديّ؛ هو أيضاً ينكر وجود مركز 'تأتي القوة فيه من الأسفل. ولا يوجد أي تعارض ثنائي وكلي بين الحكم والمحكومين في أصل علاقات القوة... فالقوة ليست شيئاً يمكن إحرازه، إمساكه، أو المشاركة فيه...'[7] أيضاً: 'تعمل القوة في كل لحظة بأجزاء صغيرة'[8]. وأيضاً: 'تستخدم القوة وتمارس عبر منظمة كالشبكة... ويدور الأفراد بين خيوطها؛ إنهم على الدوام في موقع الخاضعين للقوة وممارسيها. إنهم ليسوا فقط أهدافها الخامدة أو الصامتة؛ إنهم على الدوام أيضاً عناصر تبيانها'[9].

هذه ليست، بالطبع، الحجة عينها التي يقدمها التعدّديون الأميركيون. ليس فوكو مهتماً بتشتت القوة على أطراف النظام السياسي، لكن بممارستها على الأطراف. بالنسبة

للأميركيين، تتشتت القوة على الأفراد والجماعات ومن ثم يُعاد تركيزها، أي، تستعمل ثانية على النقطة البُؤْريّة للسيادة. بالنسبة لفوكو لا توجد نقطة بُؤْريّة، إنما هناك شبكة لامتناهية من علاقات القوة ـ ومع ذلك يبدو أن وصفه ذو مضامين محافظة على الأقل، (وهذا ليس بالشيء نفسه)، إنه ذو مضامين مناهِضة للينينيّة anti-Leninist؛ إذ لا يمكن استحواذُ قوةٍ ما لم توجد قوة في المركز للإمساك بها. وإذا كانت تمارس القوة في نقاط لا حصر لها، عندئذٍ يتوجب تحدّيها نقطة بنقطة. 'إن قلب هذه القوى الصغيرة لا يمتثل لقانون الكل أو للاشيء'[10]. 'هناك جمعٌ من مقاومات، كلٌ واحدة منها حالة خاصة'[11]. يبدو هذا وكأنه يعلن عن سياسة إصلاحية، وبالفعل لقد اتهم فوكو بالإصلاحية. فعندما يتحداه اليسار، يصمد فوكو بين الفينة والفينة، وإن يبدو قلِقاً: 'من الضروري'، مناقشاً مجموعة تحقيق إحدى المجلات الراديكالية، 'التمييز بين نقد الإصلاحية كممارسة سياسية ونقد الممارسة السياسية بحجة أنها قد تسبب الإصلاح، ويتكرر هذا النقد الأخير بين المجموعات اليسارية واستخدامها للنقد جزء من آلية الإرهاب المصغر التي غالباً ما تعمل بوساطتها'[12].

من الأكيد أن هذا صحيح ويمكن تصوره، شجاعاً، في سياقٍ ما، لكنه يتحاشى الاعتراف بالحقيقة التي تبغيها الجماعة: بأن فوكو ليس ثورياً جيداً. ليس ثورياً جيداً لأنه لا يؤمن بالدولة ذات السيادة أو بالطبقة الحاكمة. وبالتالي لا يؤمن بالاستيلاء على الدولة أو بتبديل الطبقة. إنه لا يؤمن بثورة ديمقراطية لأن **العامة** لا توجد في عالمه السياسي. وهو بالتأكيد لا يؤمن بالطليعة الثورية: الطليعة ليست سوى الملك **مخفياً**، مدعياً آخر بالقوة الملكية.

III

نظرية فوكو السياسية هي 'صندوق عدة' ليس لثورة ولكن لمقاومة محلية. لكي نفهم ما يمكن أن يعني ذلك وما إذا كان ممكناً، علينا أن ندرس بعناية أكثر إصلاحات الضبط الاجتماعي التي تحلّ محلّ القوة الملكية. فلكل مجتمع إنساني ضابطه، وفي كل مجتمع يزيد عن حجم معين تتم ممارسة هذا الضبط على مستويات صغرى وكبرى.

بحسب فهم فوكو، كما أفهمه أنا، يتطلب النظام القديم فقط ضبطاً حراً نوعاً ما على المستوى المصغر، وهذه قبل كل شيء وجهة نظر تقليدية للمجتمعات التقليدية؛ أو ربما، أدت العادات الروتينية والقواعد المعتادة أكثر بقليل من القسر المتقطع. كانت التداخلات السياسية دراماتيكية لكنها عرضية ـ تشبه تلك العقوبات المريعة التي يصفها فوكو في القسم التمهيدي لكتابه **المعاقبة والمراقبة Discpline and Punish**، التي جعلت القوة الملكيّة جليّة وكانت منسجمة كُليّةً مع نظام تنفيذ قانون غير فعّال عموماً. لكننا نعيش في عصر مغاير، إذ يتطلب الاقتصاد والمجتمع على حدّ سواء (يحصل على) سيطرة مفصلة جداً على السلوك الفردي. هذه سيطرة لا يمكن لأي شخص بمفرده أو

نخبة سياسية أو حزب حاكم أو طبقة أن تؤسسها وتبقيها في نقطة فريدة: من هنا تأتي 'النقاط التي لا تحصى' عند فوكو وشبكاتها اللامتناهية، التي في شراكها، كما يقول، نحن جميعنا واقفون.

اقترح عددٌ من الكُتّاب قبل فوكو بأننا نعيش في مجتمع أكثر ضبطاً أكثر من أي وقت مضى. هذا لا يعني أن السلوك أصبح أكثر روتينية أو قابلاً للتنبؤ أكثر (إنه ليس كذلك)، لكنه خاضع بشكل وثيق لقواعد، معايير، خطط، ومراقبات سلطوية. منذ خمس عشرة سنة خلت في مقالة عن دولة الرفاه، حاولتُ البرهان على أن

> السمة الأكثر تأثيراً في إدارة الرفاه Welfare administration الحديثة هي مجرد تنوع أدوات الردع والقسر عندها. كل حاجة معترف بها حديثاً، كل فائدة مُتلقاة، تخلق تبعية جديدة وصلة اجتماعية جديدة... حتى [الـ] اعتراف بالأفراد ـ رؤيتنا المكتسبة بصعوبة ـ يصبح مصدراً لسيطرة مركّزة. لم يسبق أبداً أن أصبح مواطنونا العاديون معروفين جداً عند السلطات العامة مثلما هي الحال مع دولة الرفاه. مجتمعنا كلٌّ معدود، معطى رقماً، مصنّف، مفهرس، مسجّل في قائمة الاقتراع، تتم مقابلته، وذو إضبارة...

وهكذا دواليك: عدد وافر من الناس كتبوا على هذا النحو. لكن فوكو نجح في توسيع وجهة النظر هذه ووضعها في قالب مسرحي بسلسلة من الكتب تشبه إلى حدٍّ ما عقوبات الملك: تصريحات بلاغية في غاية القوة، بالرغم من أنها في الأغلب غير فعّالة في ما يمكن أن نظنه تنفيذاً عالِياً للقانون ـ عرض الدليل، الحجة المفصّلة، دراسة وجهات النظر البديلة. تركز الكتب على ثلاث أو أربع شبكات مؤسساتية للضبط الاجتماعي، مأوى عقلي، مشافٍ، سجون، مع نظرات جانبية نحو جيوش، مدارس، ومصانع، ومن المستحيل قراءتها، مهما كان للمرء من اعتراضات، من دون حس بالإقرار.

سوف أعود إلى هذا الإحساس بالإقرار وبالتالي إلى التجربة العقلية للعيش ضمن شبكة من نظم الضبط. لكن يتوجب عليّ أولاً أن أقول كلمة حول السمة العامة لهذه الشبكة. لأنها تمتلك سمة عامة، حتى إن كانت غير محكومة بإرادة منفردة. فوكو ليس كافكا Kafka السجن أو المأوى العقلي؛ وصفه ليس سريالياً أو غامضاً. المجتمع التأديبي هو مجتمع، كلّ اجتماعي، يصبح فوكو في وصفه لأجزاء هذا الكلّ وظيفياً functionist. لا أحدَ صمم الكل، ولا أحدَ يسيطر عليه؛ لكن تتلاءم الأجزاء كلها إلى حدٍّ ما كما ولو بوساطة يد خفية. يندهش فوكو بعض الأحيان من هذه الملاءمة: 'هذا نظام علاقات معقّد جداً، بحيث يقود المرء في النهاية للتعجب كيف، مع حسبان أنه لا يمكن لأي شخص بمفرده أن يتصور في كليّته، كيف أنه إلى هذا الحد حاذق في توزيعه للقوة،

في آلياته، سيطراته وتكيفاته التبادلية'.[13] في بعض الأحيان يصبح فوكو واقعياً: 'إذا استمر السجن كمؤسسة في البقاء لهذه المدة، في مثل هذا الجمود، إذا لم يتم أبداً التساؤل بجدية عن مبدأ الحجز الجزائي، من دون شك لأن هذا النظام السجني carceral... أنجز بعض الوظائف الدقيقة جداً'.[14]

من المسلَّم به أن النظام المعقد الذي تعمل ضمنه هذه الوظائف هو مجتمع صناعي حديث، لكن فوكو يفضّل بعض الأحيان إسماً أكثر دقة. في تعليله لكيفية 'تكوين' الجنسانية في القرن التاسع عشر، يكتب: 'قوة الحياة هذه كانت دون شك عنصراً لا يمكن الاستغناء عنه في تطور الرأسمالية؛ إذ إن الرأسمالية لم تكن ممكنة لولا الإدخال المضبوط للأجساد في آلية الإنتاج وتكييف ظاهرة السكان مع العمليات الاقتصادية. لكن هذا ليس كل ما تتطلبه الرأسمالية؛ إنها أيضاً احتاجت...' إلخ[15]. تحصل الرأسمالية على ما تحتاجه، بالرغم من أن فوكو لا يوضح كيف تتشكّل هذه العملية، ووصفه للاستخدامات المحليّة للقوة يبدو وكأنه يجعل هذا الإيضاح أقل احتمالاً مما قد يكون ضمن نظرية ماركسية أكثر تقليدية.

يشكّل احد أنواع الماركسية، الوظيفية، الدعامة البعيدة لتصور فوكو للقوة. في إحدى مقابلاته المتذبذبة التي يتخذ فيها موقفاً سياسياً ولا يتخذ في آن واحد، ينقاد فوكو ليقول بأن الصراع الطبقي هو بالنسبة لصراعات القوة المحليّة 'ضامن لوضوحها'[16]. أما ما يمكن أن يعنيه هذا الوضوح بحسب تفكيره، فهو سؤال لن أتوصل إليه هنا. لكني أريد ملاحظة أن الضامن موجود، مثل إله القس بيركلي Bishops Berkely's God، وأن تأكيد فوكو على الصفة الخصوصية لعلاقات القوة ليس حجة من اجل الانفصال او الاستقلال الراديكالي. إنه، قبل كل شيء، يبحث عن معرفة استراتيجية، ليس مجرد معرفة تكتيكية. إنه يجادل من الأسفل إلى الأعلى، لكن هذا نمط تحليلي يوحي، على الأقل باتجاهه، بأن العالم ليس شكلياً على الإطلاق. إذا لم يجد دولة ليستولي عليها، فهو لا يزال يأمل أن يعيِّن موقع العدو القابل للفهم، في مكان ما، ضمن النظام المعقد للمجتمع الحديث أو للاقتصاد الرأسمالي.

ومهما يكن، يبدأ فوكو بالتكتيكات، بعلاقات القوة المحليّة، بالرجال وبالنساء في أدنى مستويات الهرم الاجتماعي، أو كما يمكن أن يقول الواقعون في شرك شبكة علاقات القوة مثلك ومثلي. وكما يبرهن فوكو، لا يمكننا أن نفهم المجتمع المعاصر أو حياتنا الخاصة، ما لم ننظر عن كثب وبتمعن إلى هذا النوع من القوة وإلى هؤلاء الناس: ليس إلى الدولة أو الطبقة أو القوة المتحدية وليس إلى الطبقة العاملة أو إلى الناس أو إلى الطبقات الكادحة، إنما إلى المشافي، المآوي العقلية، السجون، الجيوش، المدارس، المصانع؛ وإلى المرضى، المجانين، المجرمين، المجندين، الأطفال، عمّال المصانع. علينا أن ندرس المواقع التي تمارس فيها القوة مادياً ويتم تحملها أو مقاومتها مادياً.

في الحقيقة، ليس هذا ما يقوم به فوكو: فهو منظِّر أكثر منه مؤرخاً، والمواد التي

يكوِّن منها كتبه تتألف غالباً من المشاريع والاقتراحات المكتوبة لهذه المواقع، المخططات الهندسية، كتب دلائل القواعد والنظم، نادراً ما تتألف من أوصاف فعلية لممارسات وتجارب. مع هذا، من المشوق رؤية الكيفية التي تنتشر هذه المشاريع عبرها، كيف تتكرر التصاميم المتشابهة لمؤسسات عديدة، كيف أن القوانين والنظم، بالرغم من امتلاكها الصفة المثالية ـ هي نقيض اليوطوبيا anti-utopia، كما لو أنها توقع لروايتَي 1984 أو العالم الجديد الشجاع Brave New World. ومع ذلك، تبدأ الإيحاء بالخطوط العريضة لحياتنا اليومية. هذا هو المجال لأقوى أعمال فوكو، وعمله قوي سواء قدم أم لم يقدم 'ضمان فهم'. رغم هذا، يشير العمل إلى نوع من الترابط المنطقي.

يدّعي فوكو ـ واعتقد أنه محق جزئياً في ادعائه ـ بأن نظام الضبط في السجن، يقول، يمثّل استمراراً وتكثيفاً لما يجري في أماكن أكثر عادية ـ ولن يصبح ممكناً إن لم يكن كذلك. هكذا نعيش جميعاً بحسب برنامج زمني، نستيقظ على صوت المنبه، نعمل بحسب روتين صارم، نعيش تحت نظر السلطة، نخضع بين الفينة والأخرى للفحص والتفتيش. لا يسلم فردٌ من مثل هذه الأشكال الجديدة للسيطرة الاجتماعية. يجب أن نضيف، مع هذا، بأن الخضوع لهذه الأشكال الجديدة ليس الشيء نفسه كما لو أننا في السجن: ينزع فوكو بشكل منتظم نحو التقليل من الفرق، وهذا النقد، الذي أريد تطويره، يدخل في قلب سياسته.

IV

لقد اقترحت أن كل أشكال الضبط الصغرى وظيفية في نظام أشمل. بعض الأحيان، يدعو فوكو هذا النظام رأسمالية، لكنه يعطيه أيضاً عدداً من أسماء أكثر دراماتيكية: المجتمع الانضباطي، المدينة السجينة carceral city، النظام الكلّي الرؤية panoptic regime، و، أكثر الوصوفات ترويعاً (وتضليلاً) الأرخبيل السجني carceral archipelago'. لكن مهما يكن هذا النظام الأعم، إنه ليس النظام السياسي، الحكم أو الدستور. إنه ليس نظاماً محدداً من قبل سيِّدٍ هوبزيّ Hobbist مصاغاً من قبل مشرِّع أو جمعية تأسيسية، تضبطها عملية قضائية.

النقطة الجوهرية في نظرية فوكو السياسية هي أن الضبط يفلت من عالم القانون والعدل ـ وبعدئذٍ يبدأ لـ 'يستعمر'، ذلك العالم، مُبدِّلاً المبادىء القانونية بمبادىء جسدية، سيكولوجية، وبمستوى أخلاقي. هكذا في كتابه عن السجون: 'بالرغم من أن مجال السلطة الكلي في المجتمع الحديث يبدو وكأنه يضع حدوداً على ممارسة القوة، رؤيته الكلية المنتشرة شمولياً تساعده على العمل، في الجانب السفلي من القانون، في تشغيل، آلية ضخمة ودقيقة معاً...'[17] والقاعدة التي تعمل بموجبها هذه الآلية علمية، ليست قانونية. وظيفة الضبط تكون في خلق أناس مفيدين، رجال ونساء مَنْ يتكيَّفون

مع معيار ما، مَنْ مشهود لهم بأنهم عقلاء أو صحيون أو طبيعيون أو مؤهلون، ليسوا أدوات حرة يخترعون معاييرهم الخاصة، مَنْ، بحسب لغة الحقوق، 'يعطون القانون لأنفسهم'.

انتصار القواعد المهنية أو العلمية على الحقوق القانونية وانتصار الضبط المحلي على القانون التشريعي هو موضوع شائع تماماً في النقد الاجتماعي المعاصر. لقد تسبَّب هذا بسلسلة من الحملات للدفاع عن حقوق المرضى عقلياً، السجناء، مرضى المشافي، الأطفال (في المدارس وأيضاً في العائلات). انهمك فوكو نفسه بعمق في إصلاح السجون أو ـ يتوجب عليّ الانتباه ـ في ممارسة سياسة تتعلق بالسجون قد تكون تسببت في الإصلاحات. وفي الحقيقة حصلت إصلاحات (في الولايات المتحدة على الأقل، لكن يخامرني شعور بوجودها في أوروبا أيضاً): القوانين الجديدة حول الموافقة، السرية، الوصول إلى السجلات؛ التدخلات القضائية في إدارة السجون والمدارس. لدى فوكو القليل مما يقوله حول هذا النوع من الشيء ومن الواضح أنه شكوك بصدد فاعليته. بالرغم من تأكيده على الصراعات المحلية، فهو على الأغلب غير مهتم بالانتصارات المحليّة.

لكن ما الانتصارات المحلية التي يمكنه التفكير بها، حسبان معرفته الاستراتيجية؟ فكّر ملياً:

(1) بأن الضبط ـ بالتفصيل، السيطرة المحكمة على السلوك، ضرورية للصفات الضخمة (غير المحدودة) للحياة الاجتماعية والاقتصادية المعاصرة؛

(2) بأن هذا النوع من السيطرة يتطلب مجالاً مصغراً، شبكة دقيقة، علاقة قوة محليَّة، ممثلة بشكل نموذجي بواسطة البناء الزنزاني للسجن، بالبرنامج اليومي لأحداث السجن، بالعقوبات اللاقانونية التي تنزلها سلطات السجن، اللقاءات وجهاً لوجه بين الحارس والسجين؛

(3) بأن السجن فقط جزء صغير من سلسلة سجينة carceral continuum واضحة جداً ومعززة تبادلياً وتطال المجتمع بالكامل، نصبح جميعاً متورطين فيها، وليس فقط كأسرى أو كضحايا؛

(4) وبالأخير، يكوّن مركّب هذه الآليات الصارمة ويتكوّن بوساطة العلوم الإنسانية المعاصرة ـ هذه حجة تتكرر في كل عمل لفوكو، التي سأعود إليها. تتشابك نظم الضبط العقلية والجسدية بشكل جذري؛ يتم تشريع السلسلة السجينة carceral continuum بوساطة معرفة المواضيع الإنسانية التي تولدها.

مع أخذ كل هذا بالحسبان ـ لندع جانباً لبرهة فيما إذا كان يضيف شيئاً لوصفٍ مُرْضٍ تماماً عن حياتنا الاجتماعية ـ كيف أمكن لفوكو أن يتوقع أي شيء أكثر من إصلاحٍ طفيف هنا وهناك، تخفيف للصرامة التأديبية، استنباط وسائل أكثر إنسانية، إن

لم تكن أقل فاعلية؟ ما الممكن سوى ذلك؟ ومع هذا بعض الأحيان، يرى فوكو بديلاً جليلاً ليس في كتبه إنما في مقابلاته ـ وخصوصاً في سلسلة المقابلات في بداية السبعينات، التي لا تزال تعكس أيار 68 ـ فوكو يبدو أنه يرى تحطم الشيء برمته: سقوط المدينة السجينة carceral City، ليس ثورة وإنما إلغاء. لهذا السبب بالضبط، يشيع وصف سياسة فوكو بالفوضوية anarchist، وبالتأكيد للفوضوية anarchism لحظاتها في تفكيره. لا يعني هذا انه يتخيَّل نظاماً اجتماعياً مختلفاً عن نظامنا نحن، خارجاً عن الضبط والسيادة معاً: 'أعتقد انه كي نتصور نظاماً آخر هو أن نوسّع مشاركتنا في النظام الحالي'[18].

على وجه الضبط فكرة المجتمع كنظام، كمجموعة مؤسسات، ينبغي لها أن تفسح المجال لشيء آخر ـ ما هذا الشيء الآخر، ليس بوسعنا أن نتخيّل. لعل الحرية الإنسانية تتطلب مجتمعاً غير وظيفي non functionist ما تركيباته، أياً كانت تلك، تخدم ليس هدفاً أعم وليس لها أية قيمة تعويضية. يأتي أقرب وصف لمثل هذه الترتيبات في مقابلة نشرت أول مرة في تشرين الثاني عام 1971. 'محتمل الوقوع'، يقول فوكو، 'أن تتم تغذية المخطط التقريبي لمجتمع مستقبلي بوساطة التجارب الحديثة في المخدرات، الجنس، الكميونات، أشكال أخرى للوعي، وأشكال أخرى للفردية'[19]. في تلك المقابلة عينها، مع بعض رؤية مشابهة في تفكيره، ينكر فوكو النتائج الإصلاحية المحتملة لعمله الخاص عن السجن: 'لم يكن الهدف النهائي للتدخلا [تنا] تمديد حقوق الزيارة للسجناء إلى 30 دقيقة أو تأمين مراحيض إفرنجية للزنزانات، وإنما الاستفسار عن الفرق الأخلاقي والاجتماعي بين الأبرياء والمذنبين'.[20]

مثلما توحي النقطة الأخيرة، عندما يكون فوكو فوضوياً anarchist، هو يكون اخلاقياً وسياسياً بالإضافة إلى أنه فوضوي سياسي. بالنسبة له السياسة والأخلاق تمضيان معاً. والذنب والبراءة هما نتاجان لقانون تماماً كما السوية وعدم السوية هما نتاجان للضبط. إلغاء قوة الأنظمة يكون بإلغاء المقولات العملية والأخلاقية معاً: بعيداً جميعاً كلها! لكن ما الذي سوف يبقى؟ لا يعتقد فوكو، مثلما اعتقد الفوضويون من قبل، بأن موضوع الفرد الإنسان الحر هو فردٌ من نوعٍ ما موضوعٌ من نوع محدّد بالطبيعة جيّدٌ بحميمية اجتماعيّ، لطيفٌ ومحبٌ. بالعكس، بالنسبة له لا وجود لمثل هذا الشيء كما الفرد الإنسان الحر ولا الرجل الطبيعي أو المرأة. الرجال والنساء هم على الدوام مخلوقات اجتماعية ونتاجات لشيفرات ونظم وضبط. وهكذا استبدادية فوكو راديكالية، إنها صارمة، إنها ليست فوضوية anarchist قَدْرَ ما عدمية nihilist. بحسب حججه الخاصة، إما ألاّ يبقى شيء على الإطلاق لا شيء إنسانياً مرئيّاً؛ أو أن شيفرات ونظم ضبط جديدة سوف تنتج، وفوكو لا يعطينا أي سبب للتوقع بأن هذه ستكون أفضل من تلك التي نحيا وإياها الآن. ولا، في سبيل ذلك الأمر، يعطينا أي سبيل لمعرفة ما يمكن أن يعني 'الأفضل'.

V

هل فوكو إذاً ملتزم بفوضويته/ عدميته anarchism/nihilism ؟ لديه طريقة في مهاجمة أي شخص يقلدها أو يحاول ممارستها سياسياً، وأنا أميل إلى الاعتقاد بأن المراد لها أن تمتلك قوة وصفية، ليس معيارية. في مقابلة عام 1977 ينتقد فوكو بشكل لاذع بعضاً من رفاقه في 'الصراع حول النظام التأديبي، 'the strugglle around the penal system' كُلّ مَن خُدعوا بإيديولوجية ساذجة قديمة تجعل من المجرم... ضحية بريئة ومتمرداً عفيفاً... النتيجة كانت انشقاقاً بين هذه الحملة بترنيمتها الرتيبة، المسموعة فقط بين مجموعات قليلة صغيرة، والجمهور الذي لديه سبب وجيه لعدم قبولها كعملة مشروعة'.[21]

بالنسبة لفوكو، على نحوٍ بيِّن، لا يستطيع السجين أن يكون ضحية بريئة، لأنه أنكر الفرق بين الذنب والبراءة. لكن حجته لا تبدو أنها توحي بأن كل فعل مقاومة في كل إطار مصغر من السلسلة السجينة، مهما تكن دوافعه، هو 'تمرد خالص' ضد السلسلة ككل ـ وهو تمرد يصبح مستعداً على الدوام للتعاطف معه. ما 'الأسباب المقنعة' التي يمتلكها الرجال والنساء العاديون للتمييز بين هذه الأعمال؟

تظهر مشكلة التمييز عينها عندما يواجه فوكو اليساريين الشبان الذين يخلطون الأرخبيل السجني carceral archipelago مع الأرخبيل الغولاغي Gulag archipelago، خلطاً بحيث تصبح مصطلحات فوكو في هذا المثال، بشكل أعم، لغة كتبه جميعها، محرضاً دائماً. هو نفسه يقاوم هذا المحرض وينتقد بشكل لاذع الذين يستسلمون. 'إني حقاً قلق'، هو يقول، 'بسبب بعض الاستعمال المستخرج من نظير الاعتقال الغولاني... Gulag Intemment parallel ـ الذي يشتمل على القول «'كل أمرىء له غولاغه Gulag الخاص، الغولاغ Gulag هنا على عتبة بابنا، في مدننا، مشافينا، سجوننا، إنه هنا في رؤوسنا»'. ويتابع، بقوة، ليرفض الـ 'حل الكوني لمشكلة [الغولاغ] [Gulag] ليصبح شجباً لكل شكل محتمل الوقوع من الاعتقال'[22]. لكنه لا يقدم تمييزاً مبدئياً، قَدْرَ ما يمكنني أن أرى، بين الأرخبيلين الغولاغي Gulag والسجني carceral. لا أعتقد أن بإمكانه أن يفعل ذلك، ليس لأنه طالما ملتزم ايضاً برفض أي نوع من التحرر الذي 'يشرّع الحقوق الأساسية'؛ ولا لأنه ملتزم بتفشيه الفاصل بين الذنب والبراءة. وهو لا يقدم نسب genealagy الغولاغ Gulag و، ما يكون أهم من ذلك، لا يحتوي وصفه للأرخبي السجني carceral archipelago أية إشارة عن كيفية وسبب وقوف مجتمعنا دون الغولاغ Gulag لأن مثل هذا الوصف يتطلب ما يقاومه فوكو على الدوام: بعض التقييم الإيجابي للدولة الليبرالية.

هنا من ناحية ثانية تصبح المقارنة مع هوبز Hobbes نيِّرة. اعتقد هوبز Hobbes بأن السيادة السياسية كانت ضرورة حرفية ـ وإلا كانت الحياة مقرفة، متوحشة،

وقصيرة. إنه دعَّم كل نوع من السيادة، وهكذا لم يكن الاستبداد بالنسبة له أكثر من 'ملكية غير محبوبة'. يعتقد فوكو بأن الضبط ضروري لهذا المجتمع ـ الرأسمالي، الحديث، أو أياً كان؛ إنه يمقت كل أشكاله، كل نوع من الحجز والسيطرة، وهكذا بالنسبة له ليس التحرر أكثر من ضبط متخفٍ. لا فوكو ولا هوبز يجعلان أي فرق بين الدستور أو القانون أو حتى المجريات العقلية للنظام السياسي.

في الحقيقة، اعتقد، بأن هذه الأشياء تولد كل الفرق. يستقي أحد أتباع فوكو، وهو كاتب لمقالة ذكية حول كتاب **المراقبة والمعاقبة Discipline and Punish**، من هذا الكتاب ومن المقابلات المتصلة به النتيجة الاستثنائية أن الثورة الروسية فشلت لأنها 'أبقت الأهرام السياسية والاجتماعية على حالها ولم تكبح ولا بحال من الأحوال عمل التقنيات الضبطية'.[23] خطأ تماماً: خلق البلاشفة نظاماً جديداً طغى على الأهرام القديمة ووسع وكثف بشكل هائل استخدام الأساليب الضبطية. وقد فعلوا ذلك من قلب النظام الاجتماعي وليس مما يحب فوكو أن يدعوه بالشعريات، من المركز وليس من الأطراف. يُضعف فوكو من حساسية قُرائه لأهمية السياسة؛ لكنَّ السياسة شأنٌ.

علاقات القوة، يقول، 'مقصودة وغير ذاتية intentional and nonsubjective على حد سواء'[24]. لا أعلم ما الذي تعنيه تلك الجملة، لكنني أعتقد بأن القصد من الكلمات المتناقضة (على نحو غير ذاتي؟) أن تطبّق على مستويات القوة المختلفة. كل فعل ضبطي مخطط ومحسوب؛ القوة مقصودة على المستوى التكتيكي حيث يواجه الحارس السجين؛ الدكتور، المريض؛ المحاضر الجمهور. لكن ليس لمجموعة علاقات القوة، الارتباطات الاستراتيجية، التوظيف العميق للقوة ليس له موضوع وليس نتاجاً لمخطط فرد ما. يبدو فوكو بأنه لا يؤمن من حيث المبدأ بوجود دكتاتور أو حزب سياسي أو دولة تحدد صفة المؤسسات الضبطية. إنه يركز بدلاً عن ذلك، على ما يعتقده 'فاشية ـ صغرى، 'micro-fascism' للحياة اليومية ولديه قليل مما يقوله حول السياسة الفاشية والدكتاتورية ـ أي، حول أشكال الضبط الأكثر صلة بزمن حياته الخاصة.

غير أن هذه ليست الأشكال الأكثر خصوصية لبلده، وفوكو يعتقد بقوة في البقاء قريباً من الممارسة المحليّة للقوة. ولا يستخدم في الغالب الأعم مصطلحات مثل 'الفاشية المصغرة'، 'micro-fascism'، إنه ليس 'مفكراً عاماً' من النوع القديم ـ مثلما يقول لنا ـ الذي يقدم وصفاً ونقداً للمجتمع ككل[25]. ينتمي المفكر العام إلى زمن الدولة أو الحزب، حينما يبدو الاستيلاء على القوة وإعادة بناء المجتمع لا يزال ممكناً. إنه، في عالم المعرفة السياسية، كالملك في عالم القوة السياسية. حالما قطعنا رأس الملك، تأخذ القوة والمعرفة على السواء أشكالاً مختلفة. أحدث عمل لفوكو مُعبِّرٌ عن جهد لشرح هذه الأشكال، استنباط ما يمكن تسميته بنظرية المعرفية. الآن أريد أن أستنطق نظرية المعرفة هذه، لكونها الأصل النهائي لفوضويته/ لعدميته anarchism/nihilism.

يبدو ميشيل فوكو في بعض الأحيان ليس ملتزماً بأي شيء أكثر من تورية مفصلة

لكلمة 'ضبط' - التي تعني، من جهة، فرعاً من المعرفة، ومن جهة أخرى، نظاماً للتصحيح والسيطرة. هذه هي حجته: الحياة الاجتماعية ضبط محكم. **المراقبة تجعل الضبط ممكناً** (يمكن عكس تسلسل الإسمين). تُسْتَخرج المعرفة من السيطرة الاجتماعية وتقدِّم أرضيتها: كل شكل معيَّن من السيطرة الاجتماعية يعتمد على شكل من المعرفة ويجعله ممكناً. يتبع ذلك أن القوة ليست كابتة فقط لكنها أيضاً خلاقة (حتى وإن ما تخلقه، يقول، هو علم إدارة السجون penelogy)؛ وعلى نحو مشابه، المعرفة ليست أيديولوجية وحسب إنما أيضاً صادقة. لكن هذا لا يجعل القوة أو المعرفة جذابة جداً. 'يتكوَّن' علم إدارة السجون penelogy بوساطة نظام السجن بالمعنى الواضح ذلك لأنه لا توجد سجون للمساجين أو لآثار السِّجْن ما لم تكن هناك سجون. يولِّد أحد أشكال الضبط المعطيات التي تجعل الأشكال الأخرى محتملة الوقوع. في الوقت عينه، يقدم علم إدارة السجون penelogy كلا الأساس المنطقي والبنية الفكرية لنظام السجن. إذ لا يمكن ممارسة الضبط، على الأقل ممارسة مستمرة ومنظمة، بدون معرفة ضبطية.

إنه طراز دقيق، بالرغم من احتمال أن قد يكون سهلاً جداً. على اي حال، يشرع فوكو في تعميمه. 'الحقيقة هي شيء من هذا العالم: يتم إنتاجها فقط بوساطة أشكال متعددة من الإكراه. وأنها تسبِّب آثاراً منتظمة للقوة'.[26] هكذا لكل مجتمع ولكل عصر تاريخي، يوجد نظام حقيقة، غير مخطط، لكنه وظيفي، يتولد إلى حد ما من شبكة من علاقات القوة، من أشكال متعددة من الكبح، ويتم فرضه معها. هناك بعض نماذج من الخطاب التي يقبلها المجتمع 'ويجعل... صحيحة'، وهناك آليات تمكِّننا من التمييز بين التصريحات الصحيحة والخاطئة - وكذلك المسوغات، بحيث لا تريدنا أن نرتكب أخطاء. ويعتقد فوكو بأن الحقيقة تتناسب مع مسوغاتها ومعرفة الإكراهات التي تنتجها.

إلى هناك يظهر أن لا وجود لوجهة نظر مستقلة، لا إمكانية لتطوير مبادىء نقدية. بالطبع، باستطاعة المرء أن يسأل الأسئلة الجليّة: ما هي وجهة نظر فوكو؟ إلى أية مجموعة من علاقات القوة يرتبط نقيض نظام الضبط النَسَبي genealogical antidiscipline ؟ فوكو أذكى من الاّ يقلق بصدد هذه الأسئلة. إنها قياسية لأية نسبية relativism. إنه يستجيب بطريقتين: أولاً هو يقول، كما لاحظتُ للتو، بأن علوم النسب عنده genealogies هي تخيلات fictions تنتظر 'الوقائع السياسية' 'political realities' التي تجعلها صحيحة. كل حاضر يخترع ماضيه، لكن فوكو اخترع ماضياً لبعض حاضرٍ مستقبليّ. في أحيان أخرى، يقول فوكو ببساطة أكثر بأن عمله أصبح ممكناً بفعل أحداث 1968، وبفعل تمردات محليّة لاحقة هنا وهناك على طول السلسلة الضبطية disciplanry continum.

مثلما يتم توليد نظم الضبط التقليدية وتسريعها بوساطة الاستخدامات التقليدية للقوة، هكذا نقائض نظم الضبط anti-disciplines الفوكويّة تتوالد بمقاومة هذه الاستخدامات. لكني لا أرى، بحسب معايير فوكو، كيف يمكن تشريعها بالمقاومة كيما

تصبح المقاومة عينها ناجحة (وليس واضحاً ما الذي يعنيه النجاح). لكن ربما، بعد كل هذا، قد يكون الطلب من فوكو أن يُظهر لنا الأساس الذي يقف عليه، موضحاً مبرراته الفلسفية، عند هذه النقطة. كونه لا يطلب منا أن نتبنّى هذا المبدأ النقدي أو ذاك أو نستبدل هذه المعايير الضبطية disciplinary norms بمجموعة أخرى من القواعد. إنه ليس بمحام. علينا أن نسحب ثقتنا، يقول، من صحة علم إدارة السجون penology وبعدئذٍ ندعم... ماذا؟ ليس كل معسكر سجناء ثورة، لأجل ربما وجود بعضٍ مما لدينا 'سبب مُقْنع' كي لا ندعم. يبدو لي، في هذه النقطة، أن موقف فوكو هو ببساطة غير متماسك. الإثارة القوية للنظام الضبطي disciplinary system تفسح المجال أمام سياسة مضادة للضبط anti-disciplinary politics هي في الأغلب خطابية ومزاجية.

لكن هناك كثيراً ينبغي أن يُقال. في تمردات السجون تلك التي يمكننا التعاطف معها بحقّ، لا يشك السجناء في الواقع في الفاصل بين الذنب والبراءة أو القيمة الحقيقية لسلامة الفقه jurisprudence أو علم إدارة السجون peneology. 'خطابهم' يأخذ منحىً مغايراً: إنهم يصفون وحشية سلطات السجن أو لا إنسانية أحوال السجن، ويشكون من العقوبات التي كثيراً ما تتخطى تلك التي أُدينوا قانونياً بها. إنهم يشجبون التعسفية الرسمية، المضايقة، المحاباة، وهلمّ جرًا. إنهم يطالبون بإدخال ما يمكن أن ندعوه في أحسن الأحوال سيادة القانون وبتطبيقها. وهذه الأوصاف، الشكاوى، الإدانات، والمطالب تشكّل نقطة هامة.

من غير ريب فوكو محقّ في القول بأن الحقائق التقليدية للأخلاق، القانون، الطب وعلم النفس متورطة في ممارسة القوة؛ تلك حقيقة يتم نسيانها ببساطة شديدة من قبل العلماء المستقلين detached تقليدياً، العلماء الاجتماعيين، وحتى الفلاسفة. لكن تلك الحقائق عينها أيضاً تنظم ممارسة القوة. إنها تضع حدوداً على ما يُستطاع بحقّ أن يُفعل، وتعطي قالباً وإقناعاً للحجج التي يقدمها السجناء. هذه الحدود مهمة حتى إن تكن بمعنى ما تعسفية. إنها ليست بالكليّة تعسفية، مع ذلك، بقدر ما هي جوهرية لنظم ضبط خاصة (بكلَيّ معنيي الكلمة). تميّز حقائق الفقه jurisprudence وعلم إدارة السجون penology على سبيل المثال، العقوبة من الحجز الاحترازي. وحقائق الطب النفسي psychiatry تميِّز اعتقال المجانين عن اعتقال المنشقين السياسيين.

الدولة الليبرالية هي تلك التي تحتفظ بالحدود التي تكون نظم ضبطها disciplines ومؤسساتها التأديبية discplinary institutions ذاتية، وهي التي تفرض مبادئها الجوهرية. وعلى النقيض، الدول الفاشية والدكتاتورية تتخطى تلك الحدود، محولة التربية إلى تلقين، العقوبة إلى كبت، المحاجر العقلية إلى سجون، والسجون إلى معسكرات اعتقال. هذه تعريفات مُضِلّة؛ لا أصر عليها؛ بإمكانك تعديلها كما تريد. أريد فقط أن أوحي بالأهمية الهائلة للنظام السياسي، الدولة ذات السيادة. لأنها الدولة التي تؤسس الإطار العام الذي تعمل ضمنه المؤسسات الضبطية discplinary institutions جميعها.

إنها الدولة التي تفتح أو تغلق جوهرياً إمكان المقاومة المحلية. يناضل عملاء كل مؤسسة ضبطية discplinary institution، بالطبع، كيما يتسع مضمارهم وتزداد قوتهم الاستثنائية. أخيراً، إن فقط قوة الدولة الكفيلة بإيقافهم. كل فعل قوة محلية هو توسل لتدخل سياسي أو قانوني من المركز.

تمعّن، على سبيل، في تمردات المصانع في الثلاثينات التي أدت (في الولايات المتحدة الأميركية) إلى تأسيس المساومة الجماعية وإجراءات الشكوى، الكوابح النقدية على الإدارة العلمية، التي هي واحدة من نظم الضبط disciplines الفوكويّة، بالرغم من أنها واحدة يلمّح إليها بين الفينة والأخرى. لقد تطلب النجاح ليس فقط عزل العمال وإنما أيضاً على الأقل بعض الدعم من الدولة الليبرالية والديمقراطية. وكان النجاح وظيفياً functional ليس لأية دولة بل لدولة من ذلك النوع؛ بإمكاننا أن نتخيّل ببساطة 'وحدات اجتماعية' 'Social wholes' أخرى تتطلب أنواعاً أخرى من مصنع الضبط factory discilpine. إن وصفاً نَسَبيّاً genealogical account لهذا الضبط سوف يكون مثيراً وقيّماً، ولسوف من دون شك يتشابك مع أوصاف فوكو للسجون والمشافي. لكن إذا ما كان كاملاً، عليه أن يشتمل على نسب genealogy إجراءات الشكوى أيضاً، وهذه سوف تتشابك مع وصف، لا يجهّزه فوكو، عن الدولة الليبرالية وسلطة القانون. هنا يوجد نوع من المعرفة ـ السياسية الفلسفية والفقه الفلسفي philosiphical jurispudence ـ الذي ينظم ترتيبات ضبطية disciplinary arrangements عَبْر مجتمعنا. إنه ينبثق في باطن إحدى علاقات القوة ويمتد نحو الأخريات؛ إنه يقدم منظوراً نقدياً لكل شبكات الإكراه.

يوحي هذا بأنه مهما تكن عليه قيمة التحليلات التفصيلية والانتقادات لنظام ضبط محلي local discipline لا نزال نحتاج ـ لا اقصد أن المجتمع يحتاج، أو الراسمالية أو حتى الاشتراكية تحتاج، إنما أنت وأنا نحتاج ـ ما يسميه فوكو 'المفكرين العامين' 'general intellectuals'. نحتاج رجالاً ونساء مَنْ يعلموننا عندما تصبح قوة الدولة فاسدة أو عندما يساء استخدامها، مَنْ يصرخون بأن شيئاً ما عفناً، ومَنْ يكررون المبادىء الناظمة التي بها يمكن أن نصحح الأشياء.

لكني لا أريد أن انتهي بهذه الملاحظة الأخيرة. لا أريد أن أسأل فوكو أن يكون رافعاً للمعنويات uplifting. تلك ليست المهمة التي أسندها لنفسه. النقطة عوضاً عن ذلك أن المرء لا يسعه حتى أن يكون مكتئباً، غضبان، ساخطاً، نَكِداً، أو منغِصاً بسبب ما لم يكن يقيم في بعض الأطر الاجتماعية ومُتَبنِّياً، من ناحية ثانية نقدياً وتجريبياً، نُظُمه ومقولاته. أو ما لم، وهذه اشد عُسراً، أن يبني المرء وضعاً جديداً ويقترح نُظماً جديدة ومقولات. يرفض فوكو أن يفعل كلا هذين الشيئين، وذاك الرفض، هو الذي يجعل علومه النَسَبيّة his genealogies إلى هذا الحد قوية وإلى هذا الحد قاسية، إنه أيضاً موطن الضعف الفاجع في ما يتعلق بنظريته السياسية.

Notes

All the books cited are by Michel Foucault

1. Powerl Knowledge: Selected Interviews and Other Writings, 1972-1977, ed. Colin Gordon, New York: Pantheon, 1980, p. 145.
2. Ibid., p. 193.
3. Ibid., p. 133.
4. Ibid., p. 102.
5. Ibid., p. 188.
6. Ibid., p. 187.
7. The History of Sexuality, vol. 1: An Introduction, trans. Robert Hurley, New York: Vintage, 1980, p. 94.
8. Power, Truth, Strategy, ed. Meaghan Morris and Paul Patton, Sydney: Feral, 1979, p. 60.
9. Powerl Knowledge, p. 98.
10. Power, Truth, Strategy, p. 126.
11. Sexuality, p. 96.
12. Powerl Knowledge, p. 143.
13. Ibid., p. 62.
14. Discipline and Punish: The Birth of the Prison, trans. Alan Sheridan, New York: Vintage, 1979, p. 271.
15. Sexuality, pp. 140-1.
16. Powerl Knowledge, p. 142.
17. Discipline and Punish, p. 223.
18. Language, Counter-Memory, Practice: Selected Essays and Interviews, ed. Donald F. Bouchard, Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1977, p. 230.
19. Ibid., p. 231.
20. Ibid., p. 227.
21. Powerl Knowledge, p. 130.
22. Ibid., pp. 134, 136-7.
23. Paul Patton, in Power, Truth, Strategy, p. 126.
24. Sexuality, p. 94.
25. Powerl Knowledge, pp. 126ff.
26. Ibid., p. 131.